﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [يونس: 10]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بَعْدَ الحُلولِ في الجَنّاتِ ذُكِرَتِ الأحْوالُ والمَقالاتُ

الآيَةُ امتدادٌ لِمَراتِبِ سَعاداتِ أَهْلِ الجَنَّةِ ودَرَجاتِ كَمالاتِهم، فبَعْدَ أنْ هَداهُم إلى جَنّاتِهِ وأَجْرى الأنْهارَ مِنْ تَحتِهم وما أَفاضَ عَلَيهِم مِنَ المُتَعِ واللَّذّاتِ في جَنّاتِ النّعيمِ؛ شَرَعَ بِذِكْرِ أحوالِهم ومَقالِهِم في مَقامِهِمُ الكَريمِ مِنْ جَنَّتِهِ الّتي وَعَدَها إيّاهم مِنْ تَسْبيحٍ وتَنْزيهٍ وتَحيَّةِ سَلامٍ وحَمدٍ عَلى ما امتَنّ وأَنْعَمَ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ﴾: الدّعْوى اسْمٌ مِن (دعا يدعو)، وهوَ اسْمٌ لِما تَدّعيهِ، ويُمكن أنْ تَكونَ دُعاءً[1]، جذْرهُ اللّغويُّ الدّالُ والعَينُ والواوُ، ومَعْناهُ قَريبٌ مِنَ الطَّلَبِ، وهذهِ المادَّةُ تَدلُّ في أصْلِها عَلى أَنْ تَجعلَ الشَّيْءَ يَميلُ إليْكَ بِصَوتٍ أوْ قَوْلٍ مِنكَ، ومِن مَعانيهِ: النّداءُ، إلّا أنّ النّداءَ يكونُ بالحَرفِ، وقدْ يكونُ بمَعْنى الحَثِّ عَلى الشّيْءِ، ومِن مَعاني الدَّعوى: التَّضَرّعُ والدّعاءُ، وكَثيرٌ مِنَ المُفَسّرينَ يَرى بِأنّ دَعْواهُم في الآيَةِ بمَعْنى الدُّعاء[2]، وجَعَلَها قِسْمٌ مِنْهم بمَعْنى القَولِ[3]، وبَيْنَ التَّفسيرَينِ تَشابُهٌ عِندَ آخَرينَ.

2) ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ﴾: تَحيَّةٌ: اسمٌ على زِنَةِ (تَفْعِلَة)، مُشْتَقّةٌ مِن (حَيَّ) بمعْنى بَقِيَ، واسْتُعملَتْ بمَعْنى السّلام، وجَذرهُ اللُّغويُّ: الحاءُ والياءُ والحرفُ المعتلُّ، والأصْلُ في مَعناهُ أنَّهُ ضِدّ المَوتِ في أَحَدِ مَعْنَيَيهِ،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دعو).

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 3/267، وابن جرير، جامع البيان: 15/30.

(3) ابن سلّام، التّصاريف لتفسير القرآن، ص: 325، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/105.

وهيَ أيْضًا "امتِدادٌ واتِّصالٌ مَع رِقّةِ الحياةِ والحَرَكةِ"، ثُمّ جُعِلَ لَفْظُ التَّحيّةِ دُعاءً[1].

ومعْنى ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ في الآيَةِ: ما يُحَيّي بِهِ بَعْضُهم بَعْضًا أوِ السّلامُ مِن ربِّ العالَمينَ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حالُ السُّعَداءِ في جَنَّتِهِ أوَّلُهُ التَّسْبيحُ وأَوْسَطُهُ السَّلامُ وآخِرُهُ التَّحْميدُ

ذَكَرَ مِن حالِ السُّعَداءِ في الجَنَّةِ أنّ قَوْلَهم وكَلامَهم أنْ يُنَزّهوا اللّه تعالى بِقولهم: سُبْحانَكَ اللهمَّ، وأنْ يُحيّي بَعْضُهم بَعْضًا بالسّلام، وأنْ تَكونَ خاتِمَةُ دُعائِهِم أنْ يَقولوا: الحَمدُ للّه ثَناءً عَلَيهِ، ومُقْتَرِنًا بِربِّ العالَمينَ لِلدّلالةِ عَلى كَمالِ قُدرَتِهِ وحُسنِ تَدبيرِهِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغَةُ القَصْرِ في تَعْريفِ طَرَفَي الإسْنادِ:

إذا اشْتاقَ أَهْلُ الجَنَّةِ لِقُرْبِ رَبِّهِم بِالدّعاءِ؛ أَثْنَوا عَلى رَبِّهِم تَسْبيحًا

قولُ اللّه تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ جُملةٌ اسْميَّةٌ، قُصِرَ فيها ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ على قولِه: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ بِطَريقِ تَعريفِ جُزْأَيِ الإسْنادِ، وذلكَ لِأنَّ لَفْظَةَ ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ معرَّفةٌ بالإضافةِ إلى الضَّميرِ، و﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ قُصِدَ لَفْظُهُ، فصارَ بِمنزِلَةِ العَلَمِ، ونُكْتَةُ القَصْرِ: الإيذانُ بأنّهُ لا دَعْوى لَهُم في الجنَّةِ سِوى تَسبيحِهِ تَعالى الدّالِّ على التّنزيهِ والتّعظيمِ[3].

ووَجْهُ ذِكرِ حالِهم هذا هوَ الإشارةُ إلى ما هُم فيهِ مِنَ النَّعيمِ المقيمِ، وهوَ طلبَةُ الرّاغِبينَ وغايَتُهم، فإذا اشْتاقوا لِقُرْبِهِ تَعالى ومُناجاتِهِ بِالدُّعاءِ كَما كانوا في الدُّنيا، افْتَقَدوا ما يَسْأَلونَهُ، فَقَد غَمَرَهُم بِنِعَمِهِ، فَعوّضوا سُؤالَهُ بالثّناءِ عَلى ربِّهِم تَسْبيحًا، أوْ أَخْرَجوا

(1) ابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حيي).
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/8.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/103.

السُّؤالَ بِلَفْظِ التّسْبيحِ[1]؛ فهوَ أدلُّ على التّنْزيهِ والتّعْظيمِ والتّمجيدِ وهو جامِعٌ لِمَعاني الكَمالاتِ[2].

نُكْتَةُ إيثارِ لَفْظِ الدَّعْوى:

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ التّعبيرَ بمُفْردةِ: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ على أنْ يقولَ (دعاؤُهم)؛ لأنَّ معْنى دَعواهُم: الدّعاءُ الغامِرُ الثّابتُ الكَثيرُ الّذي يُلْهَمونَهُ ولا يَقولونَهُ على وَجْهِ التَّكليفِ، إذْ لا تَكْليفَ في الآخِرةِ[3].

دَعْـواهُـم تَعْني الـثَّـنـاءَ لأجْـلِ الثَّناءِ لا تَوْطِئة لِلطَّلَبِ

ولفْظُ الدَّعوى وردَ على تَفسيرِ "قولهم: سُبحانكَ اللهمّ"[4]، فمَفهومُ الدَّعوى هوَ القَولُ الّذي مَعْناهُ الثَّناءُ الحَسَنُ المُطلَقُ عَن أيِّ طَلبٍ، فهوَ قولُ الثَّناءِ لأجْلِ الثَّناءِ، لا تَوْطِئَة لِلطَّلبِ.

دلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ و﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾:

أُضيفتِ الدّعوى إلى ضميرِ الجمعِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ العائدِ على الدّاعينَ المُنادينَ؛ لأنّهم يَدعونَ مُجْتمِعينَ كما يُشعرُ سياقُ الكلامِ[5]، فهيَ دَعْوى صادرَةٌ عَن أهْلِ الجَنَّةِ.

الدَّعْوى صادِرَةٌ عَنْ أَهْلِ الجَنَّةِ نَصًّا والتَّحِيَّةُ احْتِمالًا

أمّا قولُه: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾؛ فقد أضافَ التَّحيّةَ فيه إلى ضَميرِ الجَمعِ؛ فهوَ إمّا أنْ "يَكونَ مَصْدرًا مُضافًا لِلمَجموعِ لا عَلى سَبيلِ العَملِ، بَل يَكون كَقوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنبياء: 78]، فَتَحيَّتُهم بَيْنَهم سَلامٌ، أيْ: تَحيَّة بَعْضِهم لِبعضٍ.

وإمّا أنْ يَكونَ مُضافًا إلى المَفْعولِ، والفاعلُ: اللّه تعالى، أو الملائكَةُ، أيْ: تَحيَّةُ اللّه إيّاهم، أوْ تَحيَّةُ الملائكةِ إيّاهُم"[6].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/313.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/103.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/79 - 80.
(4) العكبريّ، التّبيان: 2/666.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/105.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/18.

غَرَضُ تَقْديمِ الجارِّ والمجْرورِ ﴿فِيهَا﴾:

وَظيفَةُ القَصْرِ الادِّعائيِّ المُبالَغَةُ في تَنْزيهِ الله تَعالى وتَعْظيمِهِ

قُدِّمَ الجارُّ والمَجْرورُ ﴿فِيهَا﴾ في قولِ الله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ لِلاهْتِمامِ والاخْتِصاصِ، فَكَأَنَّهُ قالَ: دَعْواهُم التَّسْبيحُ فيها لا في غَيْرِها، وهوَ مِنْ بابِ القَصْرِ الادِّعائيِّ لِلمُبالغَةِ في إظْهارِ التَّنزيهِ والتَّعظيمِ، وإلّا فإنَّ التَّنزيهَ والتَّعْظيمَ يَكونُ في جَميعِ الأَمكِنَةِ، فَصَوَّرَها هُنا مُخْتَصَّةً بِجَنّاتِ النَّعيمِ؛ فالمُبالغَةُ في القَصْرِ لِإرادَةِ الاهْتِمامِ بِشَأنِ التَّسْبيحِ في الجنَّةِ.

سِرُّ إضافَةِ التَّسْبيحِ إلى ضَميرِ الخِطابِ:

تَصْريحٌ بِتَكْليمِ الله، وإيماءٌ إلى رُؤْيَتِهِ تَعالى

جاءَ التَّعبيرُ في قولِه تَعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ دونَ أنْ يَقولَ: (دَعواهُم فيها سُبحان الله)، وذلكَ لِبيانِ أنَّ أهلَ الجنَّةِ يُخاطِبونَ اللهَ تَعالى بِالتَّنزيهِ والثَّناءِ كِفاحًا، ولا يُثْنونَ عَليهِ غَيْبةً قائلينَ: سُبحان الله، وفي ذلكَ إكرامٌ لَهُم، وفيهِ إيماءٌ إلى رُؤيَةِ الله تَعالى، وتَصْريحٌ بِتَكْليمِهِ.

بَلاغَةُ اسْتِعْمالِ تَرْكيبِ النِّداءِ ﴿ٱللَّهُمَّ﴾:

نِداءُ أَهْلِ الجنَّةِ يَصْدُرُ عَنْهُم مُجْتَمِعين؛ لِعَظيمِ ما يُشاهِدونَهُ مِنَ الإكْرامِ الإلهيِّ

استُعمِلَ تركيبُ النّداءِ ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ المشْتملُ عَلى الاسْمِ الأحسَنِ (اللّه) والميمِ المشدَّدَةِ عِوضًا عَن ياءِ النّداءِ، ومعناهُ: نُسَبِّحكَ يا اللّه، كالقُنوتِ بِلَفْظِ: اللهمّ إيّاكَ نعبدُ ولَكَ نُصَلّي ونَسْجُدُ[1]؛ لِبَيانِ أنَّ تَسْبيحَهُم يَصْدُر عَنْهُم مُجْتَمعينَ، وهذا الاجْتِماعُ لا مِن بابِ الاتِّفاقِ النِّظاميِّ، بَل مِن بابِ الاتِّفاقِ لِما يَرونَهُ مِن إقْبالِ اللّه عَلَيهم، فَيَصْدرُ عَنْهم ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ مُجْتَمِعينَ، وهذا يَدلُّ عَلى شَديدِ فَرَحِهم بِما يَرونَهُ ويَسْمَعونَهُ مِن قِبَلِ اللّه تعالى.

بَلاغَةُ العَطْفِ: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾:

عُطِفَ قولُه تَعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ عَلى ما سَبَقَهُ مِنَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/331.

التَّسبيحِ الّذي يُرادُ منهُ التَّنزيهُ؛ لأنَّ أهلَ الجنَّةِ إذا شَرَعوا في الدّعاءِ تَسْبيحًا قوبِلوا بالسّلامِ، وهوَ دُعاءٌ بالسَّلامَةِ صادِرٌ عَنِ اللّه تعالى، أوْ عَنِ الملائكَةِ، أوْ عنْ بَعْضِهم يُحيِّي بَعْضَهمُ الآخَرَ، فَإذا قُلْنا: إنَّ التَّحيَّةَ صادِرَةٌ عَنِ اللّه تَعالى؛ فَتِلْكَ مُتَّسِقَة مَع خِطابِهِم ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾.

مُكافَأَةُ أَهْلِ الجِنانِ بِالتَّحِيَّةِ الّتي هيَ الدُّعاءُ بِالسَّلامَةِ مِنْ كُلِّ آفَةٍ

وإذا قُلْنا بِصدورِ التَّحيَّةِ عَنِ الملائكَةِ؛ فذلكَ مِنْ إكْرامِ اللّه لَهُم، وإذا قُلْنا إنَّهُ يَصْدُرُ عَن بَعْضِهم تُجاهَ بَعْضِهمُ الآخَرِ، فذلكَ أَمرٌ يَعمُّ أَحْوالَهم، ولا مانِعَ أنْ تَصْدرَ التَّحيَّةُ عَنِ اللّه سُبحانَهُ ومَلائكَتِهِ وأَهْلِ الجنَّةِ، فالقَولُ بِالعُمومِ الّذي يَقْتَضيهِ السِّياقُ أَوْلى مِنَ التَّخْصيصِ الّذي لا دَليلَ عَليه.

نُكْتَةُ اسْتِعْمالِ لَفْظِ التّحيَّةِ:

اختيرَ لَفْظُ التَّحيَّةِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ مَعَ أنّ أصلَ التّحيَّةِ اجْتُلِبتْ مِن تَمنّي الحَياةِ لِلمَرءِ والدُّعاءِ بِها[1]، والجنّةُ حَياةٌ خالِدَةٌ؛ لِلإيماءِ بأنَّ السُّعداءَ مِن خَلْقِ اللّه سُبحانَهُ في أُنْسٍ وسُرورٍ، وذلكَ مِنْ أكْبرِ مُتَعِ النَّفْسِ ولَذّاتِها[2].

الإشارَةُ إلى أنَّهُم في أُنْسٍ وحُبورٍ، وذلكَ مِنْ أَعْظَمِ لَذّاتِ النَّفْسِ

غَرَضُ تَقْديمِ الجارِّ والمجْرورِ ﴿فِيهَا﴾:

قدّمَ الجارّ والمَجْرور ﴿فِيهَا﴾ عَلى الخَبَرِ ﴿سَلَٰمٌ﴾ في قولِه تَعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾؛ لإفادَةِ الاهْتِمامِ والتَّخصيصِ، فإنَّ السَّلامَةَ مِنَ الآفاتِ والنَّقائصِ، كَأَنَّها حاصِلَةٌ في جَنّاتِهِ تَعالى لا في غَيرِها، وكُلُّ سَلامٍ دونَ سَلامِهم في تِلكَ الجِنانِ مُشْتَمِلٌ عَلى العَيْبِ والنَّقْصِ.

كُلُّ سَلامٍ دونَ سَلامِ أَهْلِ الجَنَّةِ مُشْتَمِلٌ عَلى شَوائِبِ النَّقْصِ

غَرَضُ تَنْكيرِ لَفْظِ السَّلامِ:

في تَنْكيرِ لَفْظةِ ﴿سَلَٰمٌ﴾ في قولِه: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ غَرَضٌ دالٌّ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/107.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/101.

على إيجازٍ بَديعٍ بَليغٍ؛ فَإنَّ تَحيَّتَهُم هذهِ تَشْملُ جَميعَ أَنْواعِ السَّلامِ[1]، فَقدْ تَكونُ التّحيَّةُ مِنَ اللّه تعالى، كَقوله سُبحانَهُ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ﴾ [الأحزاب: 44]، وقدْ تَكونُ مِنَ الملائكَةِ عِندَ دُخولِ الجَنَّةِ بِقولهم: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: 73]، وقدْ تَكونُ مِنْ بَعْضِهم لِبَعضٍ كَقوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًاۖ﴾ [مريم: 62]، فلفظة ﴿سَلَٰمٌۚ﴾ المُنَكّرةِ تَشْمَلُ أَنْواعَ السّلامِ كُلَّها.

اشْتِمالُ السَّلامِ في الجَنَّةِ عَلى أَنْواعِهِ كُلِّها

ووُرودُ لَفظِ سَلامٍ مُنَكَّرًا فيهِ أَيْضًا إِخْبارٌ عَنِ الجِنْسِ بِفَرْدٍ مِن أَفْرادِهِ، فاللّه تَعالى جَعَلَ لَهمُ التَّحيَّةَ بِهذا اللَّفْظِ، والظّاهِرُ أَنَّ التّحيَّةَ بَيْنَهُم هيَ بِهذا اللَّفْظِ النَّكِرةِ ﴿سَلَٰمٌۚ﴾، فَحُكِيَتْ هُنا بِلَفْظِها دونَ تَعْريفِها؛ مِن نَحوِ: السَّلامُ عَلَيْكُم، أَوْ: وتَحيَّتُهُم فيها السَّلامُ[2].

الإِخْبارُ عَنِ الجِنْسِ بِفَرْدٍ مِنْ أَفْرادِهِ

غَرَضُ حَذْفِ مُتَعَلّقِ ﴿سَلَٰمٌۚ﴾:

حُذِفَ مُتَعَلّقُ ﴿سَلَٰمٌۚ﴾ فَلَم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (سلامٌ عَليكم)؛ وذلكَ لِأَنَّ التّحيَّةَ هيَ مُجَرّدُ مؤانَسَةٍ وإِكْرامٍ بَيْنَهم، فهيَ أَشْبَهُ ما تَكونُ بِالخَبرِ والشُّكرِ مِنها بِالدُّعاءِ والأَمانِ، فَفيها اغْتِباطُهُم بِالسَّلامَةِ الكامِلَةِ مِنَ العَطَبِ والآفاتِ، بِخلافِ تَحيَّةِ أَهْلِ الدُّنيا الدّالَّةِ عَلى الدُّعاءِ بِالأَمانِ وتَسْكينِ رَوْعِ المُخاطبِ، وأَنَّهُ لا يُضْمِرُ شَرًّا لِمُلاقيهِ[3].

سَلامُ أَهْلِ الجَنَّةِ إِيناسٌ وتَكْرِمَةٌ فهوَ أَشْبَهُ بِالخَبَرِ منه بِالدُّعاءِ

بَلاغَةُ التَّرْتيبِ بَينَ الجُمَلِ المتَعاطِفَةِ:

في الآيَةِ جُملٌ مُتَعاطفةٌ بدْءًا بِقولِه: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، ثُمَّ ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ﴾، ثمَّ ﴿دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وجاءَ التَّرْتيبُ عَلى نَسَقٍ مَقْصودٍ؛ فالتَّسْبيحُ هوَ تَنْزيهُهُ تَعالى عَنْ كُلِّ ما لا يَليقُ بِهِ، وكانَ ذلكَ التَّنزيهُ إِيجادًا لَهم بِسَلامَتِهم مِنْ كُلِّ عَيبٍ ونَقْصٍ حتّى حَصَّلوا القُرْبَ مِنَ اللّه تَعالى؛ فَحَمِدوهُ عَلى

تَنْزيهُ اللّه تَعالى يوجِبُ السَّلامَةَ لِلمؤمِنينَ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/253.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/103.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/104.

نِعْمةِ الإيجادِ إرشادًا إلى قُدْرَتِهِ سُبحانَهُ بقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولا يَنْفَكُّ الإنسانُ عَنِ الحاجَةِ والنُّقصانِ[1].

وتَرْتيبُ الجُمَلِ المُتَعاطِفةِ في الآيَةِ مُشْعِرٌ أيضًا بأنَّ دَعْوتَهم كانَتْ في سياقٍ جَمعِيٍّ؛ ولِذلكَ اقْتَرنَ دُعاؤهم بِذِكْرِ تَحيَّتِهم؛ فإذا رَأى بَعضُهم بَعضًا ابْتَدروا الدُّعاءَ بـ: سُبْحانَكَ اللهمَّ، فإذا تَقارَبوا سَلَّمَ بَعضُهم على بَعْضٍ، فإذا راموا التَّفارُقَ خَتَموا الدُّعاءَ بِالحَمدِ[2].

ولَمّا سَعِدَ أَهْلُ الجنّةِ بِذِكرِ (سُبحانَكَ اللهمَّ)، وشاهَدوا السَّلامَةَ عَنِ الآفاتِ والمَخافاتِ الّتي هُم فيها؛ أَيْقَنوا أَنّ هذِهِ الأحْوالَ الجَليلَةَ والرُّتَبَ القُدْسيَّةَ، إنَّما تَهيَّأتْ بِإحْسانِ اللهِ سُبحانَهُ وإفْضالِهِ وإنْعامِهِ، فاشْتَغَلوا بِحَمدِ اللهِ والثّناءِ عَليهِ[3].

سِرُّ ذِكْرِ لَفْظِ: ﴿وَءَاخِرُ﴾:

ذُكِرَ لَفْظُ الآخِرِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ إشارَةً إلى أنَّهُم يَبْتَدِرونَ كَلامَهُم بِالتَّسْبيحِ، فإذا أَرادوا خَتْمَهُ حَمِدوا اللهَ تعالى، فَفيهِ شِبْهُ الاحْتِباكِ؛ حيثُ دَلَّ أَوّلُ الجُملةِ الثّانيةِ المَذْكورُ ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ عَلى أَوَّلِ الجُملَةِ الأولى المَحْذوفِ ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، فَكَأنَّهُ قالَ: (أَوَّلُ دَعْواهُم فيها سُبْحانكَ اللهم).

بَراعَةُ حَذْفِ التَّقابُلِ عِنْدَ وجودِ القَرينَةِ الدّالَّةِ

ويَجوزُ أَنْ يُحْمَلَ عَلى حَقيقَتِهِ دونَ تَقْديرِ مَحْذوفٍ، فَيكونُ: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ عُنوانَ كَلامِهِم عَلى الدَّوامِ، أيْ: أنَّ غالِبَ أَحْوالِ دَعْواهُم هيَ: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، فَإذا أَرادوا خَتْمَهُ أو التَّحَوُّلَ إلى مَوْقِفٍ آخرَ مِن مَواقِفِ النَّعيمِ وأَحْوالِهِ؛ خَتَموا دُعاءَهُم بِجُمْلَةِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

التَّسْبيحُ دَعْوى المُؤْمِنينَ المُسْتَمِرَّةُ، فَإذا انْتَقَلوا إلى مَقامٍ آخَرَ خَتَموا دَعْواهُم بِالحَمدِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/80.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/105.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/217.

نُكْتَةُ إعادَةِ لَفْظِ ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾:

لَـذَّةُ المؤمنينَ في الجَنَّةِ هيَ دَعْواهُم ذِكْرًا وثَناءً عَلى الله تَعالى

أُعيدَ لَفْظُ ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ في الآيةِ مَرَّتين، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ للدّلالَةِ عَلى أنَّ قيلَ أهْلِ الجَنَّةِ في جَميعِ الأَحْوالِ ابْتِداءً وانْتِهاءً هوَ الدُّعاءُ، وأنَّ ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ هيَ حالُهم المُسْتَمِرَّةُ الثّابِتَةُ، وفيهِ أنَّ أهْلَ الجنَّةِ يَتَلَذَّذونَ بِالدُّعاءِ في ذِكْرِ اللهِ تَعالى والثَّناءِ عَلَيهِ، كَما كانوا في الدُّنيا، فإنَّ الَّذي يَغلبُ على الطَّبْعِ؛ يَلْزَمُهُ صاحِبُهُ عَلى الدَّوامِ، فَكانَ إعادَةُ ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ لِلتَّنبيهِ عَلى هذهِ الحالِ، ولِبَيانِ عَظيمِ أَثَرِ الدُّعاءِ والذِّكرِ في الدُّنْيا الموصِلِ إلى جنَّةِ الرِّضْوانِ في الآخِرَةِ.

دلالَةُ ﴿أَنِ﴾:

تَفْسيرُ دَعْوى المؤمنينَ في الجَنَّةِ وتَوْكيدُها

﴿أَنِ﴾ في قولِه تَعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَفْسيريَّةٌ لـ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾، "وهيَ مؤْذِنَةٌ بِأنَّ آخِرَ الدُّعاءِ هوَ نَفْسُ الكلمةِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾"[1].

وتَحْتَمِلُ ﴿أَنِ﴾ في الآيَةِ أنْ تَكونَ لِلتَّوكيدِ مُخَفَّفَةً مِن (أنّ) المُشَبَّهةِ بِالفِعلِ، واسمُها ضَميرُ الشَّأنِ على تَقْديرِ: وأنَّهُ، وخَبَرُها: الحمدُ للهِ[2].

سِرُّ العُدولِ عَنِ الخِطابِ إلى الغَيْبَةِ:

تَسْبيحُ اللهِ خِطابًا عِنْدَ رُؤْيَتِهِ، وحَمْدُهُ في الخِتامِ غَيْبَةً

خُتِمتِ الآيَةُ بجملةِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فعُدِلَ عَنِ الخِطابِ في قولِه: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ إلى الغَيْبَةِ، فَلَم يَأتِ الدُّعاءُ بالحَمدِ عَلى طَريقِ الخِطابِ، وسِرُّ ذلكَ أنَّ الخِطابَ فيهِ إشارَةٌ إلى رؤْيَةِ اللهِ تَعالى؛ إذِ الأصلُ في الخِطابِ أنْ يَكونَ لِمُعيَّنٍ مُشاهَدٍ، أمّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/105.
(2) شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/545.

الحَمدُ فهوَ الخِتامُ بَعدَ الرُّؤيَةِ، فَعِندَ رؤيَةِ اللهِ يُسَبّحونَهُ خِطابًا، وعِندَ الخِتامِ يَحمدونَهُ غَيْبَةً، أوْ أنْ يَكونَ مِن بابِ رِعايَةِ الفاصِلَةِ، والاهْتِمامِ بالحَمدِ وما يَقْتَرِنُ بِهِ مِن نُعوتِهِ الجَليلَةِ ﷻ وتَذكيرًا بِمُسَمّاها[1]، والأوَّلُ هوَ الأَوْلى بِالقَبولِ.

بَراعَةُ الخَتْمِ في الآيَةِ:

الاشْتِغالُ بِشُكْرِ النِّعْمَةِ مُتَأَخِّرٌ عَنْ رُؤْيَتِها

خُتِمتِ الآيَةُ بِجُملةِ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بِمدّعاةِ أنَّ اشْتِغالَهُم بالتَّسْبيحِ والتَّمجيدِ نِعْمَةٌ عَظيمةٌ مِن أَجَلِّ نِعَمِهِ ﷻ، والاشْتِغالُ بِشُكْرِ النِّعْمةِ مُتَأَخِّرٌ طَبيعَةً عَن رؤيَةِ تِلْكَ النِّعْمَةِ، فَكانَ أنْ خُتِمَ بِهذهِ الجُملةِ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحَمدُ والشُّكْرُ:

الحَمدُ يَكونُ ابْتِداءً وفي مُقابِلِ النِّعْمَةِ، والشُّكْرُ لا يَكونُ إلّا عَنْ يَدٍ ونِعْمَةٍ

ثَمّةَ فَرقٌ بَينَ الحَمدِ والشُّكْرِ، إلّا أنَّ بَعْضَ أهْلِ العِلْمِ لَم يُفَرّقْ بَينَهما كالأَخْفَشِ، وذَكرَ أنَّ بَيْنَهُما عُمومًا وخُصوصًا؛ ذلكَ أنَّ الحَمدَ نَوعٌ والشُّكرَ جِنْسٌ، ولَيْسَ العَكْسُ بِصَحيحٍ، وثَمّةَ فَرقٌ جَوْهَريٌّ بَيْنَهما وهوَ أنَّ الحَمدَ يَكونُ عَلى النِّعْمةِ والصُّنْعِ، ويَكونُ ابْتِداءً مِنْ غَيرِ عِلَّةٍ[3]، أمّا الشُّكْرُ فَلا يَكونُ إلّا في مُقابِلِ النِّعْمةِ؛ وهوَ عِرفانُ الإحْسانِ ويَكونُ عَنْ يَدٍ وفَضْلٍ[4]، فالخُلاصَةُ: أنَّ الحَمدَ أَعَمّ مِنَ الشُّكْرِ مِنْ جِهَةِ التَّعَلّقِ، أمّا مِنْ جِهَةِ الآلَةِ فَإنَّ آلَةَ الحَمدِ اللِّسانُ والقَلْبُ، أمّا الشُّكْرُ فيَكونُ بِالقَلْبِ واللِّسانِ والجَوارِحِ، فَقد قالَ اللهُ ﷻ: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: 13]، فالشُّكرُ أَعَمُّ مِنْ هذهِ الجِهةِ، فالحَمدُ عُمومُهُ بِالتَّعلّقِ، وخُصوصُهُ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/9.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/217.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حمد).
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (شكر).

بالآلَةِ، والشُّكرُ بِعَكْسِ ذلكَ[1]، والتَّعبيرُ بالحَمدِ في الآيَةِ ممّا يُناسِبُ المَقامَ؛ لِأنَّهُ الأَعَمُّ الأَشْمَلُ بِالمُتَعَلّقِ؛ ولأنَّ الشُّكرَ يَكونُ بالأعْمالِ والأفْعالِ، ولا عَمَلَ لِأَهْلِ الجِنانِ؛ لأنَّهُم تَحَوَّلوا مِنْ دارِ العَملِ والابْتِلاءِ إلى دارِ الرّاحَةِ والنَّعيمِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 202.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»